-6-

العلاقة بين إيران وفلسطين وحماس

يعود تاريخ فلسطين ككيان جيوسياسى إلى عام ٣٠٠٠ ق م. كانت منذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد أرض الكنعانيين، ذلك الشعب القديم الذى خضع فيما بعد لحكم المصريين والفلسطينيين وبنى إسرائيل والفينيقيين والبابليين والفرس والمقدونيين والرومان و العرب والصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. فتح المسلمون فلسطين عام ٦٣٨م وسمحوا للناس من مختلف الأديان والعقائد بالعيش بسلام هناك ورحبوا بالحجيج من جميع الأديان. عاش الأهالى الأصليون، المسلمون منهم والمسيحيون واليهود معاً فى سلام فى ظل الحكم الإسلامى، بالتقابل مع غياب التسامح ووجود التعصب آنذاك فى أوروبا المسيحية عصر الأوسطية. بين عامى ١٠٩٧ و١٢٩١ شن الصليبيون الغربيون حروبا للسيطرة على فلسطين وارتكبوا المذابح التى قتلوا فيها عشرات الآلاف من السكان المسلمين [والمسيحيين واليهود المشرقيين] ومن ثم حكموا القدس لمدة سبعين عاما قبل أن يهزمهم صلاح الدين ويحرر المدينة.

obeikandl.com

كان الحكم العثمانى لفلسطين شديد التسامح مع المسيحيين واليهود. كانت تلك المجموعات تتمتع بالاستقلال الذاتى وكان لها قدر كبير من السلطة على حكم نفسها بما فى هذا جباية ضرائبها الخاصة وتوزيعها، وكان هذا نظاماً أكثر تقدما بكثير من أى نظام معاصر فى تعاطيه مع مجموعات الأقليات الدينية. بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وفرض الحكم البريطانى الكلونيالى، طالب الفلسطينيون لأنفسهم بدولة ذات سيادة. بيد أن وعد بلفور عام ١٩١٧ الذى كان نتاج المصالح البريطانية الإمبريالية والصهيونية اليهودية والمسيحية عمل على تسهيل إقامة دولة يهودية فى فلسطين. بعد الحرب العالمية الأولى دعمت الحركة الصهيونية الحكم الكلونيالى البريطانى فى فلسطين. وبعد سلسلة طويلة من الاحتيالات والمناورات السياسية تدفقت الهجرات اليهودية من أوربا على

obeikandl.com

فلسطين. ولتبرير اقتلاع الأهالى الفلسطينيين تم تصوير المستوطنين اليهود الأوروبيين والعصابات الصهيونية المسلحة على أنهم متحضرون، والفلسطينيين على أنهم «جماعات غير يهودية» من العرب الشرقيين الهمج المتخلفين. سحق الجيش البريطانى بدعم من الأيديولوجيات المسيحية الصهيونية انتفاضة الفلسطينيين ضد الاستعمار التى استمرت من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٣٩. أقيمت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد الحرب العالمية الثانية وغدت إحدى الأصول الاستراتيجية للولايات المتحدة فى المنطقة، بصفتها كيانا عسكريا لحماية المصالح الغربية وإمدادات النفط. ومنذ إنشائها ظلت تلك الدولة وذاك المجتمع ذو التركيبة العسكرية فى حروب مستدامة ضد الفلسطينيين وشعوب الدول العربية.

ظلت النساء الفلسطينيات يلعبن دورا مهما فى المقاومة والحركات

obeikandl.com

القومية. تُبين النظرة السريعة على تاريخ الحركة النسائية أن «اتحاد النساء الفلسطينيات» قام بتنظيم تظاهرات ضد وعد بلفور عام ١٩٢١. وفى عام ١٩٢٩، حضرت مائتا موفدة أول مؤتمر للنساء العربيات فى فلسطين وأثناء الانتفاضة التى اندلعت بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩ قاومت النساء البريطانيين والصهاينة. وبدءا من عام ١٩٤٨ وإلى عام ١٩٦٤/١٩٦٥ ابتدعت تنظيمات نسائية متنوعة أشكالا جديدة من الأنشطة المعادية للاحتلال.

استُخدِمت الهلوكوست تكرارا لتبرير إقامة دولة إسرائيل ومحاولة إعادة تشكيل أرض الفلسطينيين «أرضا يهودية». ومثل الهلوكوست، بالنسبة للفلسطينيين، فإن نكبة عام ١٩٤٨ جريمة ضد الإنسانية يعاقب عليها القانون الدولى وتناظر التطهير العرقى فى القارات الأمريكية وإفريقيا واستراليا الذى ارتكبه المستعمرون الغربيون. وفى الحرب المستدامة التى بدأت عام ١٩٤٨ [وقبلها على يد العصابات الصهيونية] قتل الصهاينة الفلسطينيين فى سبعين مذبحة. كانت مذبحة دير ياسين الشهيرة ترمز إلى مستوى الرعب والبشاعة المستخدمة لإجبار الفلسطينيين على النزوح من أراضيهم ومنازلهم. وضع الإسرائيليون قانون «أملاك الغائبين» الذى صادروا بمقتضاه الأوقاف الإسلامية التى كانت تشمل مساحات كبيرة من الأملاك والأراضى الموقوفة فى فلسطين التاريخية. فقد الفلسطينيون أكثر من ٧٨٪ من بلدهم بما فى هذا القدس الغربية [ويجرى الآن الاستيلاء على القدس الشرقية وتهويدها]. أصبح الفلسطينيون لاجئين وطُرِدوا إلى الضفة الغربية وغزة ولبنان وسوريا؛ حُرِموا من أرضهم وهويتهم الوطنية وانتهى الأمر بالكثيرين منهم إلى العيش لاجئين فى المنفى.

ومن هذه الخلفية، تتضح أهمية دور إيران فى الشرق الأوسط فى الخمسينيات، وكما أسلفنا فى الفصل الأول، اكتسب انتصار حركة مصدق القومية التى دعمها الشيوعيون والإسلاميون، شعبية فى المنطقة. ألهم تأميم النفط الإيرانى موجة من الحركات المعادية للإمبريالية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. بيد أن الانقلاب الأمريكى/ البريطانى عام ١٩٥٣ غيّر موقف إيران. شكّل شاه إيران وإسرائيل وتركيا تحالفا ضد العالم العربى. وفى مواجهة صعود التيارات القومية والشيوعية فى المنطقة وقتئذ كان هذا التحالف مهما لإيران كونها دولة خط أمامى فى الحرب الباردة، ودعمت الولايات المتحدة تحالف إسرائيل مع شاه إيران وعملت على تقويته. اعترفت إيران بدولة إسرائيل وأمدتها بحوالى ٨٠٪ من احتياجاتها النفطية. وعلى الرغم من عدم تنفيذ إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة القاضية بعودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم فقد استمرت إيران فى علاقاتها الاقتصادية مع إسرائيل. وكما سنوضح فى الفصل القادم، فقد ازدادت تلك العلاقات قوة فى أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦، وبخاصة فى مجالات التعاون العسكرى والاستخباراتى بما فى هذا التعاون الوثيق بين جهازى الموساد الإسرائيلى والساڤاك الإيرانى، وظل هذا التعاون قائما حتى سقوط الشاه عام ١٩٧٩.

منذ الخمسينيات وحتى السبعينيات كانت تيارات القومية العربية العلمانية والأيديولوجيات الماركسية ذات شعبية فى فلسطين مثلما كان الحال فى معظم أنحاء المنطقة، تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وتبنت النضال المسلح لتحرير فلسطين، ومعها الدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب ويهود ما قبل عام ١٩٤٨ معا. خاض ياسر عرفات كرئيس لمنظمة فتح، كفاحا مريرا وكسب اعتراف غالبية الشعب الفلسطينى والشعوب العربية والإسلامية.

بيد أن إضعاف تيار القومية العربية والدعم الغربى المؤيِّد لإسرائيل جعلا من المستحيل على منظمة التحرير مواصلة العمل على تحقيق هدفها بتحرير فلسطين.

فى عام ١٩٦٧، هاجمت إسرائيل مصر وسوريا والأردن واستولت على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، وأيضا الضفة الغربية والقدس الشرقية اللتين كانتا فى عهدة الأردن. بعد ١٩٦٧ برز الدور الفاعل لحركات المقاومة ضد الاحتلال الصهيونى للضفة وغزة، وكان اللافت فيها مشاركة النساء، وبخاصة ليلى خالد عضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والمجلس القومى الفلسطينى والتى أصبحت أسطورة لمشاركاتها فى عمليات لاختطاف الطائرات من أجل جذب أنظار العالم إلى البشاعات التى تُرتكب ضد الفلسطينيين وإلى قضية الشعب الفلسطينى. وفى أواخر السبعينيات وبدايات الثمانينات، عملت لجان نسائية ومراكز نسائية معا لوضع قضايا الجندر على أجندات الحركات القومية.

بعد أحداث سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠، أُجبرت منظمة التحرير على نقل مقارها الرئيسى إلى بيروت. وفى تلك الأثناء، زودت الولايات المتحدة إسرائيل بمليارات الدولارات على شكل مساعدات وأسلحة متطورة. كانت مصر قد ظلت تاريخيا قائدة الجبهة العربية الموحدة ضد إسرائيل، لكنها، بعد حرب عام ١٩٧٣ ثم توقيعها اتفاقية كامب دايڤيد استُبعدت من المواجهة العربية ضد إسرائيل والمعارضة لها مقابل مساعدات عسكرية واقتصادية أمريكية، وبهذا تدعّم دور إسرائيل كأهم أصول الولايات المتحدة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من ذلك، فأثناء السبعينيات، كان اليسار الفلسطينى

العلماني والقوميون في الجبهة الأمامية للصراع ضد الصهيونية. كان لتلك المنظمات أيديولوجيات سياسية متنوعة تتراوح بين الشيوعية والقومية، وتتماهى مع حركات المقاومة في أنحاء العالم. كانت الحركات الماركسية الإيرانية، وتنظيمات حرب العصابات تتخذ من حركة فتح، ومعها حركات المقاومة الجزائرية والأمريكية اللاتينية والڤيتنامية نماذج تحتذيها في صراعها ضد الشاه. تسلل بعض أعضاء هذه التنظيمات من إيران إلى معسكرات منظمة التحرير في لبنان. كانت المعسكرات الفلسطينية في لبنان تقوم بتدريب مقاتلين من جميع أنحاء العالم بما في هذا مجموعات حرب العصابات الإيرانية.

وعلى الرغم من هيمنتها لمدة عقد من الزمان، فشلت قيادة منظمة التحرير في إنجاز شيء بل وأُجبرت، بممارسة ضغوط من الصهيونية العالمية، على عمل تنازلات لإسرائيل. في تلك الأثناء، كانت «معاهدة السلام» المصرية الإسرائيلية قد تزامنت مع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. كان للشعار الذي أطلقته الثورة الإيرانية «إيران اليوم وفلسطين غدا» وما قدمته من مساعدات لمقاومة الهجمات الإسرائيلية على لبنان، كان لها أهمية ذات شأن بالنسبة للفلسطينيين. علق صالح وهو طالب فلسطيني ناشط من جامعة بيرزيت، بالقول:

«كانت ثورة ١٩٧٩ في إيران مهمة للمسلمين في المنطقة. اكتسبت كتب على شريعتي شعبية في فلسطين وبدأ الكثيرون يوجهون النقد إلى الحركات الإسلامية في المنطقة لعدم إنجازها شيئا يذكر على حين تمكنت إيران من هزيمة الشاه ودولته العميلة للولايات المتحدة وصديقة إسرائيل. اكتسب الإسلام أهمية كقوة سياسية نتيجة للثورة الإيرانية».

تذهب لاله خليلي إلى أن كثيرا من المثقفين الفلسطينيين الذين كانوا

يؤمنون بالتحرر القومى بدأوا يرون «تشابها بين الخطابات التى تدعو إلى قيام دولة قومية، والخطابات التحررية والخطابات الإسلامية؛ مثلا ألّف فتحى الشقاقى[١] كتابا بعنوان: «الخمينى: الحل الإسلامى والبديل» والذى أعلن فيه أن التوجه الإسلامى الخمينى هو الاستراتيجية الوحيدة للتحرير.

بعد ثورة ١٩٧٩، كشف سفير إسرائيل السابق فى إيران، أنه، وعبر السنوات، قامت جميع القيادات الإسرائيلية بزيارة الشاه بمن فيهم دايڤيد بن جوريون وجولدا مائير وإسحق رابين ومناحم بيجين وموشيه ديان. أنهى قيام الجمهورية الإسلامية هذه العلاقة وقام عرفات بزيارة الخمينى، وسحبت إيران اعترافها بدولة إسرائيل وطالبت بتحرير فلسطين والقدس. وقامت أيضا بقطع جميع علاقاتها الديبلوماسية بإسرائيل وتحويل مقر سفارة إسرائيل فى طهران إلى مقر لسفارة فلسطين. من ثم، تحولت تركيا إلى اللاعب الأساسى لحساب إسرائيل فى المنطقة وغدت الولايات المتحدة قوة مضادة لإيران وسوريا هناك.

ظهور حماس:

تاريخيا، منذ وقت طويل ظل للإسلام السياسى فى فلسطين أبعاد قومية فلسطينية معادية للاستعمار. كان للإسلاميين الفلسطينيين دور مهم فى الثورة المعادية للاستعمار التى اندلعت ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. وبعد ذلك، تشكلت أفرع من جماعة الإخوان المسلمين فى القدس عام ١٩٤٦ وفيما بعد فى غزة ويافا وحيفا واللد والرملة. وأثناء حرب ١٩٤٨، قاتل أعضاء من الجماعة الإسرائيليين بدعم من متطوعى

(١) المهندس الفلسطينى العبقرى مؤسس حركة الجهاد الإسلامى والذى اغتالته إسرائيل. (الترجمة)

الإخوان من الأردن وسوريا. فى الضفة الغربية التى كانت تحت سيطرة النظام الهاشمى الأردنى، تبنى الإسلاميون المقاومة السلمية، أما فى قطاع غزة، فكان للإخوان المسلمين الفلسطينيين روابط وثيقة مع نظرائهم المصريين، وبمنتصف الخمسينيات كانوا قد أصبحوا قوة سياسية يعمل لها حساب هناك. بعد عام ١٩٦٧، وفيما كانت منظمة التحرير تشتبك فى نضال مسلح ضد الاستعمار، تركزت أنشطة الإخوان على توفير الرعاية الاجتماعية فى مخيمات اللاجئين والمناطق الحضرية الفقيرة. وفى هذا السياق، استطاعت المنظمة أن تعمل علنا دون خشية من انقضاض إسرائيل عليها. أيضا، كانوا قد عادوا إلى الظهور بأسلوب أكثر سرعة وقوة فى غزة منه فى الضفة الغربية، وذلك لأن منافسيهم من الشيوعيين والقوميين كانوا ضعفاء هناك.

فى عام ١٩٨٧ تأسست حركة المقاومة الإسلامية (حماس) أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ – ١٩٩٣). فى البداية، أجرت الولايات المتحدة وإسرائيل اتصالات رسمية مع حماس على أمل أن تعمل قوة المنظمة المتنامية على تقويض منظمة التحرير القومية العلمانية وتأييدها الواسع. بيد أنه فى عام ١٩٨٩، أعلنت إسرائيل حماس تنظيماً غير قانونى. أيضا، أدى دعم منظمة التحرير لصدام حسين فى حربه ضد إيران إلى إضعاف العلاقات بين منظمة التحرير وإيران، وبالرغم من ذلك، واصلت إيران سياساتها المعادية للصهيونية والمؤيدة للفلسطينيين مع دعمها العلنى لحماس.

بدأت الانتفاضة الأولى فى ديسمبر عام ١٩٨٧ حينما هرب عدد من الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال بعد أن قتلوا جنديا إسرائيليا. وفى نفس الوقت، قام الإسرائيليون بقتل عدد من العمال الفلسطينيين

وإصابتهم أثناء عودتهم من العمل بالداخل الإسرائيلى. أدى ذلك إلى اندلاع احتجاجات جماهيرية فى الضفة الغربية وغزة ومضى الصبية الفلسطينيون يقذفون جنود الاحتلال بالحجارة، وسرعان ما انضم جميع سكان غزة والضفة إلى الانتفاضة وإزاء ذلك فرضت إسرائيل بقيادة رابين عقابا جماعيا غير مسبوق على الفلسطينيين - بما فى هذا الاعتقالات الجماعية والتعذيب وكسر العظام ومنع التجول وهدم المنازل - الأمر الذى أدى إلى سقوط عشرات آلاف القتلى والجرحى الفلسطينيين.

لعبت حماس دورا مهما فى الانتفاضة بتعبئة أعضائها ومناصريها من خلال شبكة المساجد والجامعات. طالبت بإلغاء دولة إسرائيل وتبنت الكفاح المسلح ضد الاحتلال. أدى إصرار حماس على أن فلسطين التاريخية هى وقف إسلامى إلى قيام حملات حقوقية لاستعادة أملاك الأوقاف الإسلامية التى صادرتها إسرائيل. لقيت تلك السياسات والمطالبات شعبية لدى غالبية الفلسطينيين بالتقابل مع سياسات منظمة التحرير التى كانت قد وقّعت «إعلان الجزائر» عام ١٩٨٨، وبهذا، تخلت واقعيا عن هدفها الأصلى فى إقامة دولة فلسطينية موحدة على جميع أراضى فلسطين التاريخية. أما من ناحيتها، فقد رفضت حماس ذلك الإعلان ومفهومه الأساسى القائم على حل الدولتين. كان هذا هو بداية التوتر بين حماس وفتح، فيما شعرت قيادة فتح بتحدى سلطتها. بحلول عام ١٩٩٢ كانت حماس قد أصبحت حركة مقاومة قوية فى المناطق المحتلة. وكانت تلك هى فترة الترحيلات الجماعية وطرد الأكاديميين والأطباء والمهندسين ورجال الدين والمدرسين والعاملين فى مجال الصحة والمثقفين الفلسطينيين إلى جنوب لبنان حيث قتل الإسرائيليون

الكثيرين منهم. أدى هذا إلى مقاومة أكثر عنفا ضد إسرائيل وإصرار على حق العودة حيث عملت تلك الترحيلات الجماعية واسعة المدى كتذكرة بعمليات الاقتلاع والنزوح فى عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧. تدريجيا، طورت حماس من خلال أعضائها الذين رُحّلوا إلى جنوب لبنان علاقة أوثق مع حزب الله، ومن ثم مع إيران.

وكما فى حالة حزب الله، كان ظهور حماس كحركة مقاومة شعبية نتيجة مباشرة لسياسات إسرائيل والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى عام ١٩٩٣، وقعت منظمة التحرير اتفاقيات أوسلو التى استضافها الرئيس كلينتون وحيث صافح عرفات رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين. زُعم أن تلك الاتفاقيات خطوة أخرى باتجاه حل الدولتين. وعلى الرغم من ذلك، أخذ عدد المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية وغزة فى التنامى، ومضى الإسرائيليون يقيمون حواجز الطرق ونقاط التفتيش ويشيدون جدار العزل العنصرى بهدف اقتلاع الفلسطينيين وجعلهم غير مرئيين. وفى واقع الأمر، فقد أضفت اتفاقيات أوسلو الشرعية على مصادرة الأراضى الفلسطينية ومصادر المياه، الأمر الذى يعنى أنه فيما يعانى الفلسطينيون من شح المياه يملأ الإسرائيليون أحواض السباحة فى منازلهم ونواديهم وتُزهر أحواض ورودهم. تتحكم إسرائيل فى حوالى ٩٠٪ من مياه الضفة الغربية وقد تم تحويل المياه إلى المناطق الاستيطانية فيما تُجفّف أراضى الفلسطينيين وأشجارهم.

يضطر الفلسطينيون من أجل الحصول على المياه لاستخداماتهم اليومية إلى شرائها من المستوطنين أو من دولة إسرائيل، وفى هذا الصدد يقول عمر من مدينة قلقيلية:

«إنهم مهتمون بقلقيلية بخاصة لأن فيها مصادر كبيرة للمياه، يمنعون

عنا مياهنا ويحرموننا منها لكننا مازلنا نقاوم بعد كل هذه السنوات. زرعوا على الجانب الآخر من الجدار ، جبلا من الزهور للتظاهر بأنه ليس ثمة جدار بين المستوطنين وبيننا».

أيضا، أنكرت اتفاقيات أوسلو حق العودة على خمسة ملايين لاجئ ومنفيّ فلسطيني. سهل هذا تجاهل كلينتون لقرار مجلس الأمن رقم ١٩٤ بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨ الذى ينص على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم ووطنهم. علاوة على ذلك، كان لاعتماد فتح والسلطة الفلسطينية على المساعدات الخارجية والاستثمارات الخاصة وتمويل الولايات المتحدة لفتح ضد حماس أثر مدمر للاقتصاد الفلسطيني. تشكلت السلطة الفلسطينية برئاسة عرفات فى عام ١٩٩٢ واضطلعت بمهام الجيش الإسرائيلى فى غزة وأريحا، وفيما بعد، فى أجزاء أخرى من الضفة. وكما ذهب الراحل إدوارد سعيد، أصبحت منظمة التحرير بمقتضى اتفاقيات أوسلو، الآلية الأمنية نيابة عن إسرائيل العنصرية التى مضت قدما فى سياساتها التوسعية وتهميشها للفلسطينيين.

وفيما كانت شعبية منظمة التحرير تتراجع، كانت شعبية حماس تشهد تصاعدا وذلك لموقفها من إسرائيل. طوال عامى ١٩٩٥ و١٩٩٦، اتبعت حماس، بدعم من إيران نهج التفجيرات الاستشهادية الذى كان حزب الله قد اتبعه فى لبنان عام ١٩٨٢، وذلك لأنه كان الوسيلة الوحيدة المتاحة للفلسطينيين لردع هجمات إسرائيل المتصاعدة على الفلسطينيين العُزّل. كانت حماس أول تنظيم إسلامى سنى يتبنى استراتيجية التفجيرات الاستشهادية. ولهذا أهمية خاصة حيث إن فكرة التفجيرات الاستشهادية كانت قد ظلت غريبة على تنظيمات حرب العصابات

الفلسطينية العلمانية. ووفقا لما جاء على لسان نور ما شاء الله فى حديث معى:

«ظل مفهوم الاستشهاد سلاحا قويا فى صراع الفلسطينيين ضد الصهاينة والبريطانيين منذ فترة الانتداب، لكن ليس تكتيك التفجيرات الانتحارية. سُمِّى الجناح العسكرى لحماس، أى كتائب القسام، على اسم الشيخ عز الدين القسام الذى قتله البريطانيون هو وأتباعه فى معركة شهيرة فى الريف الفلسطينى، وساعد استشهادهم على إشعال الثورة الفلسطينية بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. فى فترة ما بعد ١٩٦٧، غُطيت الجدران فى المدن الفلسطينية ومخيمات اللاجئين بالضفة الغربية وغزة بصور الشهداء وبأسماء أشخاص قتلوا وهم يقاومون الاحتلال الإسرائيلى. أيضا، يتغنى الفلسطينيون فى أهازيجهم بأسماء أكثر الشهداء شهرة وبخاصة الذين قتلهم البريطانيون أثناء انتفاضة الثلاثينيات».

وهكذا، وابتداء من التسعينيات، تبنى الفلسطينيون تكتيك التفجيرات الانتحارية (الاستشهادية) التى كانت قد ارتبطت بالشيعة وبلبنان. نفذت حماس أولى تلك التفجيرات فى أعقاب مذبحة ٢٩ فلسطينى أثناء صلاتهم فى الحرم الإبراهيمى بالخليل عام ١٩٩٣ على يد طبيب مستوطن إسرائيلى/ أمريكى يسمى الدكتور باروخ جولد ستاين. نفذت النساء الفلسطينيات أيضا تلك العمليات وكانت أولاهن (وردة؟) إدريس فى السادسة والعشرين من العمر، وأخرهن زينب على فى عام ٢٠٠٤، رأى كثير من الفلسطينيين فى تفجيرات حماس الاستشهادية ردًا على التصاعد الهائل فى أعداد القتلى الفلسطينيين على يد جيش الاحتلال الإسرائيلى، وكان رد حماس على تصوير الإسرائيليين للنضال

الفلسطينى على أنه إرهاب هو «توقفوا عن قتل المدنيين الفلسطينيين نتوقف عن قتل المدنيين الإسرائيليين». بالطبع، كان عدد القتلى الفلسطينيين على يد الإسرائيليين أضعافا مضاعفة لعدد القتلى الإسرائيليين. وكان شجب الإعلام والسياسيين الغربيين وإدانتهم للفلسطينيين أكثر قسوة بكثير من شجبهم للإسرائيليين [هذا إن شجبوهم]. وفى رد من إسرائيل على تفجيرات حماس الانتحارية فى القدس، فرضت عقوبات جماعية على المناطق الفلسطينية المحتلة، وقامت هى والولايات المتحدة بممارسة ضغوط هائلة، على السلطة الفلسطينية التى تقودها فتح كى تقوم بقمع حماس. أدى هذا إلى تصاعد التنافس بين حماس وفتح فى المدة بين عامى ١٩٩٤ و٢٠٠٠ حيث قامت قوات الأمن الفلسطينية بقتل أنصار حماس فى غزة. أُنفقت ملايين الدولارات على الأنشطة الأمنية والبوليسية فيما لم يُنفق سوى أقل القليل على الشئون الصحية والتعليم والتوظيف. ألقى فلسطينيون كثيرون بالمسئولية على اتفاقيات أسلو التى أُجبرت عليها السلطة الفلسطينية وحولتها إلى قوة شرطة تعمل لصالح إسرائيل.

أدى تدهور الوضع الفلسطينى وعدم دعم الأنظمة العربية للفلسطينيين إلى تقوية العلاقة بين إيران وحماس، حيث إن إيران كانت قد ظلت الحكومة الوحيدة التى تدعم علناً الفلسطينيين فى مواجهة إسرائيل. فى عام ١٩٩٨، قام الشيخ أحمد ياسين، قائد حماس، بزيارة رسمية لإيران فى عهد خاتمى وأثنى على إيران لدعمها الفلسطينيين. ثم ذهب، بعد تلك الزيارة إلى الإمارات والكويت وقطر وسوريا واليمن ووجه أثناء تلك الزيارات النقد لياسر عرفات لمباحثاته مع بريطانيا والولايات المتحدة واصفا إياها بأنها عديمة الجدوى.

بدأت الانتفاضة الثانية فى عام ٢٠٠٠ فى أعقاب اقتحام آرييل شارون المستفز للحرم القدسى الشريف فى محاولة إثبات أن إسرائيل تتحكم حتى فى الأماكن الإسلامية المقدسة. وكانت الانتفاضة أيضا ردا على فشل اتفاقيات أوسلو واستمرار بناء المستوطنات فى القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة. علاوة على ذلك، كان الاقتصاد الفلسطينى قد أُضعف بدرجة كارثية حيث بلغ معدل البطالة ٣١٪ وكانت نسبة ٤٧٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر. تحولت الانتفاضة الثانية هذه إلى مواجهات مسلحة مع الإسرائيليين واكتسبت شعبية كبيرة فى جميع الأوساط الفلسطينية بما فيها فتح ومؤيدو منظمة التحرير. وخلافا للاعتقاد العام لم تكن إيران هى مصدر الأسلحة المستخدمة، بل كان مصدرها مصر، هذا على الرغم من موقف الحكومة المصرية الرسمى، وأيضا السوق السوداء، وبعض قوى الأمن المستائين من الأوضاع. كما أن حماس طورت عمليات تصنيع محلى للأسلحة البدائية.

وفى بداية القرن الحادى والعشرين، طورت إدارة جورج دبليو. بوش علاقة أوثق بإسرائيل. حينما أصبح بوش رئيسا فى ٢٠٠١، كانت عملية سلام أوسلو قد انهارت وكانت الانتفاضة فى أوجها. كان آرييل شارون هو رئيس وزراء إسرائيل المنتخب وكان قد استخدم الحد الأقصى من القوة لسحق الانتفاضة. بعد ٩/١١، شنت إدارة بوش حربها على «الإرهاب» وحاول المحافظون الجدد فرض نسخة من الصهيونية أكثر تعصبا على السياسة الأمريكية/ الإسرائيلية فيما بدأ بوش يتحدث عن «دولة فلسطينية قابلة للحياة» لكنه وإدارته لم يأتوا بأية محاولة لمنع إسرائيل من بناء المزيد والمزيد من المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة،

ولم يكن ثمة ذكر للقدس ولحق العودة للاجئين. وفى بدايات عام ٢٠٠٣، أعلنت إدارة بوش «خارطة الطريق» للسلام الإسرائيلى/ الفلسطينى. اتفق عرفات وحماس على أن خارطة الطريق ليست فى صالح الفلسطينيين. لكن محمود عباس، رئيس الوزراء الفلسطينى وقتئذ، قبل بها ثم خلف عرفات بعد وفاته فى ١١ نوفمبر ٢٠٠٤، فى رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. يرى كثير من الفلسطينيين أن لغته التصالحية، تصب فى مصلحة الإسرائيليين لا الفلسطينيين، بما فى هذا تعليقاته حول التنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. قال لى أدهم اللاجئ الفلسطينى بدمشق والذى كان قد ظل طوال حياته مؤيداً لفتح، إنه قد فقد الثقة فى فتح والسلطة الفلسطينية وذلك لأن:

«فتح كانت فى الأصل حركة تحرر وطنى وكانت تمثل الفلسطينيين عن حق. وطوال عقود واجهنا الفشل تلو الفشل. من ثم، فقدت فتح ثقة الشعب، وذلك بسبب أساسى، هو ضغط الأنظمة العربية عليهم. فى السنوات الأخيرة، ظل محمود عباس يحاول التعاطى مع الولايات المتحدة بضغط من السعودية. لكنه، وبأسلوب منهجى، ماضٍ فى تقديم التنازلات ومزيد من التنازلات ولا يعمل لصالح الفلسطينيين. بالنسبة لى، فإننى أعتقد أنك إذا بدأت بتقديم التنازلات للعدو فليس ثمة عودة عن هذا الطريق وستمضى فى تقديم التنازلات حتى تجد نفسك فى النهاية تفعل ما يريدون منك فعله. أيضا، أفسدت الامتيازات المنظمة وقادتها. ولسوء الحظ، فقد ركز مؤتمر فتح فى عام ٢٠٠٩ على كيفية مواجهة حماس بدلا من أن يركز على كيفية النضال ضد عدوان إسرائيل المتصاعد على الفلسطينيين. لم يكن ثمة نقاش حول التعلم من الماضى وتشكيل رؤية للمستقبل. كان انتخاب مروان البرغوثى أمرا إيجابيا لكنه لن يحدث فرقا

إذ إنه أسير فى المعتقلات الإسرائيلية ولا يستطيع المشاركة فى صنع القرار. ولهذه الأسباب مجتمعة غدت حماس البديل الوحيد».

تمضى الولايات المتحدة وإسرائيل عن عمد فى إخفاء بُعْدِ التحرر الوطنى الذى هو جوهر أنشطة حماس ويعمدون إلى تصويرها على أنها منظمة إرهابية بل وتضمينها فى خطاب «الإرهاب الكوكبى». فى عام ٢٠٠٣، ألزمت حماس نفسها بوقف مؤقت لإطلاق النار استمر حتى عام ٢٠٠٥ بالرغم من استمرار إسرائيل فى شن غاراتها على غزة. وفى عام ٢٠٠٤، قامت إسرائيل باغتيال الشيخ أحمد ياسين ومعه تسعة فلسطينيين آخرين بواسطة طائراتها المروحية. كان هو خلف اقتراح الهدنة التى أدت إلى وقف إطلاق النار مع إسرائيل، فيما طالب بانسحاب إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ وإعادة الأراضى الفلسطينية المستولى عليها والتخلص من المستوطنين اليهود وإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، ورأى أن هذا هو السبيل الوحيد لوقف العمليات الاستشهادية. كان أيضا يعارض بقوة تطور حرب أهلية بين الفلسطينيين نتيجة التنافس بين حماس وفتح.

ومع أخذ هذه الخلفية فى الاعتبار، يرى الفلسطينيون أنه ليس ثمة حكومة فى المنطقة باستثناء إيران، وتركيا مؤخرا، تعارض علنا بشاعات إسرائيل. ومن أجل أن يستطيع القارئ فهم سبب شعبية حماس ودعم إيران لها، علينا أن نستوعب أولا مدى محاولات إسرائيل بدعم من الغرب اقتلاع الفلسطينيين، حيث تعمد منهجيا إلى زيادة عدد اليهود إلى الحد الأقصى وتقليص عدد الفلسطينيين إلى أدنى حد ممكن ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، كما أن جدار الفصل العنصرى ما هو إلا استمرار لعملية التطهير العرقى وبترك الجماعات الفلسطينية مشظاة

ومعزولة عن بعضها فى القدس والضفة والقطاع ومختلف أنحاء البلد. تشجع الدولة الصهيونية، كجزء من أجندتها، الهجرة إلى إسرائيل. تأتى أعداد كبيرة من فقراء المهاجرين من إفريقيا وروسيا وجنوب شرق آسيا ويستوطنون هناك. يُمنح ذوو الخلفية اليهودية جوازات سفر إسرائيلية. ويشكلون عمالة رخيصة ويعمل بعضهم حراس أمن، أو رجال شرطة أو يلتحقون بالجيش. تعطى إسرائيل هؤلاء المهاجرين الأولوية فى العمل، فيما ترفض، غالبا، تشغيل الفلسطينيين أو تعمل منهجيا على إذلالهم فى الأعمال التى تتيحها لهم. يمول الصهاينة فى إسرائيل والولايات المحدة بناء ما يسمى «المعبد الثالث» على موقع الحرم القدسى الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) وهذا من شأنه أن يؤدى إلى تدمير المقدسات الإسلامية وإلى صراع محلى وإقليمى.

لم يحتجّ أى قائد عربى على أحداث العنف التى وقعت بالمسجد الأقصى فى أكتوبر ٢٠٠٩. فقط المرجع الشيخ حسين فضل الله هو الذى أعلن أن إسرائيل قد دخلت مرحلة جديدة لتهويد القدس بالكامل، وأن سياستها هى إنكار قداسة المسجد الأقصى بسماحها لجنودها باقتحامه. ألقى باللوم على الأنظمة العربية لمساعدتها إسرائيل على التوسع فى انتهاكاتها وقال إنها لم يكن باستطاعتها التمادى فى انتهاكاتها لو اتخذ العالم الإسلامى والعربى خطوة واحدة لوقف الاجتياحات الإسرائيلية. وفى مقابلة لى مع سامية من رام الله، قالت:

«إن الصهيونية أكثر سوءا من نظام الأبارتايد جنوب الإفريقى ومن أى نظام فاشى فى العالم. إن الغرب يدعمها بسبب عقدة الذنب من الهلوكوست. لا يتعلق الأمر باليهود المشرقيين من سكان المنطقة الأصليين فقد كان هؤلاء اليهود جزءا لا يتجزأ من سكان فلسطين. إن

مسألة من المسلم؟ ومن اليهودى؟ ومن المسيحى؟ هى ظاهرة جديدة خلقتها الصهيونية. يريدون إقامة دولة يهودية صهيونية خالصة نقية من أية عناصر إثنية أو دينية أخرى».

تقع سلوان خارج مدينة القدس القديمة مباشرة وكانت قد ظلت تاريخيا بلدة فلسطينية يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠ نسمة. نُقل إليها فى السنوات الأخيرة ٣٠٠ مستوطن مسلح، ووضعوا الأعلام الإسرائيلية فوق مبانيهم ويقومون، بصفة مستدامة، بتهديد سكان سلوان. يقول خالد الذى يعمل ضمن حملة لإنقاذ سكان سلوان والإبقاء عليهم:

«فى عام ٢٠٠٩، أصدرت الحكومة خارطة زائفة ومستقبلية للحى لتثبت أنه لم يكن ثمة سكان فلسطينيين بسلوان وأنها جزء مما تسميه «جبل المعبد اليهودى». سنقاتلهم إذ إنه ليس لدينا بديل عن هذا. هذا موطننا ولن نغادره».

منذ عام ٢٠٠٨ وإسرائيل ماضية فى تكرار مستويات عام ١٩٤٨ من تدمير المنازل الفلسطينية وإقصاء السكان الفلسطينيين. يعمل جدار الفصل العنصرى والخط الأخضر وإقامة مستوطنات جديدة على خنق المجموعات الفلسطينية بشكل يومى. يجبر عدم وجود أنشطة اقتصادية أو مدارس أو مستشفيات الناس على الرحيل. تصف فدوى الوضع كالتالى:

«يعزل الجدار بيوتنا عن أراضينا، ويفصل بين بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا وأماكن عملنا. يهدفون إلى إصابة حياتنا بالشلل الكامل. لا نستطيع الذهاب إلى المستشفى أو المدرسة أو الجامعة أو مكان العمل بدون السفر لساعات طويلة والمرور من خلال نقاط التفتيش. وتلك مسافة لا يستغرق قطعها سوى بضع دقائق بالطرق المعهودة.

يقيمون أحيانا نقاط تفتيش مؤقتة ومتنقلة ليحولوا، عن عمد، دون وصول الطلبة إلى مدارسهم وجامعاتهم، وبخاصة فى أوقات الامتحانات. الجدار من الإسمنت فى بعض أجزائه، وفى أجزائه الأخرى يتكون من أسلاك شائكة أو حادة الحواف أو مكهربة مثبت عليها كاميرات. يعيش الناس معتقلين فى تلك المدن والبلدان والقرى. أغلقت طرقهم ولا يستطيعون الذهاب أو العودة إلا من خلال نقاط التفتيش الدائمة، أو المؤقتة والمتنقلة، أو حواجز الطرق بحيث لا يجد الناس فى أحوال كثيرة سبيلا لمغادرة قراهم أو العودة إليها لشراء الأطعمة والمستلزمات اليومية بمركباتهم. عليهم السير أميالا للوصول إلى المحلات ثم يكون عليهم حَمل السلع بأيديهم عودة إلى قراهم».

أخبرني محمد الناشط القيادى فى حملة «أوقفوا الجدار» عن تجربة أسرته:

«لا يعطون تصاريح الانتقال من المنازل إلى الأراضى التى يفصلها عنها الجدار سوى لكبار السن الذين لا يستطيعون العمل بالأرض منذ عام ٢٠٠٣ وهم يرفضون إعطائى وأشقائى وشقيقاتى تصاريح للذهاب لنعمل بأرضنا. من ثم، جفّت أشجار الزيتون فى أرضنا لأن والدى البالغ من العمر ٧٥ عاما لا يستطيع رعاية الأرض أو المزروعات. المستوطنون مسلحون ويهاجمون الفلسطينيين ويحرقون منازلهم ويجبرونهم على الرحيل من منازلهم. مياه الصرف الصحى بالمستوطنات موجهة نحو أراضى الفلسطينيين وقراهم، وبهذا يدمرون المحاصيل الزراعية والبيئة. يعيدون كتابة التاريخ بتغيير أسماء القرى والمدن من أسماء عربية إلى أسماء عبرية من أجل التمويه والتظاهر أن هؤلاء السكان الفلسطينيين لم يكن لهم وجود أبداً».

كانت جهود ياسر عرفات تتركز على حل الصراع من خلال إقامة دولتين، كما أن حنان عشراوى، المتحدثة باسم الوفد الفلسطينى إلى مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، وبعده، لم تتوقف عن محاولاتها لإقرار السلام. بيد أن تلك الجهود والتنازلات لم تقابل من الجانب الإسرائيلى سوى بالازدراء، وواصل الإسرائيليون بناء جدار الفصل وإقامة المستوطنات وخنق مصادر عيش الفلسطينيين. أتت رئاسة باراك أوباما عام ٢٠٠٩ معها بالتكهنات حول الضغط على إسرائيل لقبول فكرة إقامة دولة فلسطينية بشكل ما إلى جانب دولة إسرائيل. كانت تهنئته للإيرانيين بمناسبة رأس السنة الفارسية (٢١ مارس ٢٠٠٩- عيد النيروز) وخطابه بالقاهرة فى ٤ يونيو ٢٠٠٩ قد أثارا قدرا من الأمل. بيد أنه فشل فى إقناع إسرائيل بتجميد الاستيطان، ورفض نتنياهو حق العودة للفلسطينيين وأصر على بقاء القدس تحت السيطرة الإسرائيلية. رفض نتنياهو أيضا القرار الذى صوت عليه أعضاء مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة بإدانة العدوان الإسرائيلى على غزة فى يناير ٢٠٠٩، كما رفض طلب الولايات المتحدة فى مارس ٢٠١٠ بتجميد بناء المستوطنات والمنازل اليهودية فى القدس الشرقية. مثلت تلك المواقف صفعات جديدة لجهود أوباما من أجل حل الدولتين لدرجة أن قيادات فتح نفسها عبرت عن فقدان الأمل واعتقدت أن أوباما لا يستطيع مقاومة ضغوط اللوبى الصهيونى. ترى آن الكساندر وچون روز أن السبيل الوحيد لإنهاء الصهيونية هو اتباع سبيل إنهاء نظام الآبارتايد فى جنوب إفريقيا من خلال إجراء انتخابات على أساس نظام صوت واحد للشخص الواحد لكل سكان فلسطين وإنشاء دولة واحدة ديموقراطية يعيش فيها الجميع جنبا إلى جنب. قال لى الناشط الفلسطينى محمود:

«إننى متفائل. قد لا يحدث التغيير أثناء حياتى، لكن الفلسطينيين على استعداد للتضحية مائة عام أخرى للحصول على حقوقهم المشروعة. لقد جاء الصليبيون ورحلوا، وجاء البريطانيون والفرنسيون ورحلوا، وسيكون على المحتلين الحاليين أن يرحلوا. لابد لهذا الظلم أن ينتهى».

مشاركة حماس فى الحياة السياسية الانتخابية:

ورثت حماس فكرة المشاركة فى الانتخابات عن جماعة الإخوان المسلمين وحزب الله. منذ عام ١٩٩٢، تنافس أنصار حماس مع نظرائهم من فتح فى انتخابات الاتحادات المهنية واتحادات الطلبة. يتركز أنصار حماس بشكل رئيسى فى المناطق الحضرية فى أحياء الطبقة الوسطى والفقيرة معا وفى بعض المناطق الريفية. وفى عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، فازت حماس فى الانتخابات المحلية بثلث المقاعد. كان فوز حماس الساحق فى الانتخابات فى يناير ٢٠٠٦ ذا أهمية خاصة. وفقا لخالد حروب، الأكاديمى والكاتب الفلسطينى، تتمتع حماس بتأييد نسبة تتراوح بين ٣٠٪ و٤٠٪ من الفلسطينيين ويقوم تأييد حماس على أساس الإحباط الذى يشعر به الفلسطينيون من العدوان الإسرائيلى العسكرى المتواصل وفشل السلطة الفلسطينية فى وقف جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين. أنهت الانتخابات التشريعية احتكار فتح فى فلسطين، حيث أجرى اقتراع عادل وديموقراطى شارك فيه عدد غير مسبوق من الأفراد. وفقا للنظام الانتخابى أصبحت حماس حزب الغالبية فى المجلس التشريعى الفلسطينى بحصولها على ٤٤٪ من أصوات الناخبين حيث فازت بأربعة وسبعين مقعدا من أصل ١٣٢ مقعد. فى انتخابات عام ٢٠٠٧ بغزة، هزمت حماس فتح [وبعد أحداث مؤسفة] سيطرت على قطاع غزة فيما ظل محمود عباس، رئيس السلطة ورئيس فتح مسيطرا

على الضفة الغربية ووزاراتها وقوات أمنها. صوت كثير من المسيحيين العلمانيين واليساريين والقوميين، والمسلمين من مختلف الأطياف لصالح حماس. كان هذا التأييد أيضا تصويتا على سحب الثقة من فتح ولإظهار المعارضة للولايات المتحدة. تقول آيلين قطب الأكاديمية بجامعة بيرزيت:

«ثمة عدد من القرى غالبية سكانها مسيحيون. كانت رام الله في الأصل قرية مسيحية. يعيش مسيحيون كثيرون في رام الله وبيرزيت والناصرة والقدس. صوتت عدد من القرى في منطقة رام الله لصالح حماس لأنهم، وبشكل أساسي، كانوا بحاجة لتغيير الحكم. ثانيا، فهم يعتبرون الإسلام جزءا من ثقافتهم ولا يتناقض مع طموحاتهم القومية. ثالثا، لقد حُشروا في معاقل ضيقة نتيجة للمستوطنات الجديدة ويتسبب الجدار ونقاط التفتيش في معاناتهم. لقد استولى الصهاينة على معظم أراضينا ومنازلنا. سئم الناس من رياء الغرب والولايات المتحدة والسلطة الفلسطينية الفاسدة القامعة. أيضا، توفر حماس الخدمات الاجتماعية اللازمة لجميع المجموعات والأهالي».

طورت حماس علاقة وثيقة نسبياً مع منظمتين يساريتين هما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. في انتخابات ٢٠٠٧، دعمت حماس مرشحيْن مسيحييْن وعينت مسيحيا وزيرا للسياحة في مجلس وزرائها. أيضا، حققت فوزا ساحقا في الانتخابات البلدية والطلابية والنقابية.

وكما أسلفنا، فإن التعبئة السياسية الجماهيرية للنساء أثناء الانتفاضتين الأولى والثانية أوضحت مرة أخرى فاعلية الفلسطينيات وأكدت على هويتهن. ومنذ وقت قريب، وفي نطاق حماس، ظلت النساء مرئيات في التعبئة السياسية وظلت أصواتهن في الانتخابات الجامعية

والمحلية والقومية من الأسباب الرئيسية لفوز حماس. يلعبن دورا مهما بخاصة فى مجالات التعليم والصحة، والمنظمات الخيرية، وأيضا فى الإعلام. ومثلما هو الحال بالنسبة لحزب الله، فليس لهن مواقع قيادية فى المستويات العليا السياسية أو فى صنع القرار. فى انتخابات ٢٠٠٦ التشريعية، ترشحت ١٣ امرأة وفقا لبرنامج حماس الانتخابى من بين المترشحات واللاتى بلغ عددهن ٦٦ امرأة؛ فازت سبع منهن بمقاعد، لكن حماس لم تعين فى مجلس وزرائها سوى وزيرة واحدة لشئون المرأة هى الأكاديمية ميريام صالح مؤسسة عدد من المنظمات النسائية فى الضفة الغربية.

وعلى الرغم من ذلك، تشجع عضوات المجلس التشريعى، والناشطات النساء على المشاركة فى الحياة السياسية والمطالبة بالمساواة بين النوعين. وترى هدى القناوى وجميلة الشنطى أن حماس ستتخلص من سياستها فى التفريق بين النوعين بمرور الوقت. جميع مرشحات حماس اللاتى فزن فى انتخابات ٢٠٠٦ مِهنيات متعلمات أو ناشطات أهليات. تنادى هدى النعيم التى انتخُبت عام ٢٠٠٦ لعضوية المجلس بإنهاء الزيجات الإجبارية وأعمال «القتل على الشرف» والأجور المنخفضة وعدم إرسال الفتيات إلى المدارس.

عارضت إسرائيل والولايات المتحدة وأوربا وفتح حكومة حماس المنتخبة ديموقراطيا، وقامت إسرائيل والولايات المتحدة فى أعقاب فوزها بتجميد كل التمويلات المرسلة إلى المناطق المحتلة. يعنى حصار إسرائيل لغزة وقف جميع الصادرات ووضع القيود المفرطة على الواردات مثلا، تقطع الكهرباء عن غزة، التى تضم مليون ونصف المليون شخص، لساعات عديدة يوميا. فى يونيو ٢٠٠٦، دعت حماس لتشكيل حكومة

وحدة وطنية لبدء تفاوضات السلام. وفى اليوم التالى، قصفت إسرائيل محطات الطاقة ومنازل المدنيين بذريعة الثأر لأسر الجندى جلعاد شاليط.

حماس وتوفير الخدمات والموارد:

توفر حماس المساعدات الاجتماعية والرعاية الصحية والمؤسسات الثقافية. والرياضية، وكلها ذات أهمية حاسمة فى حياة الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الاحتلال الإسرائيلى. وقد أسهم هذا فى زيادة الدعم الشعبى لها بدرجة هائلة. وعلى غرار حزب الله فى لبنان، تُنفَّذ هذه المساعدات بأسلوب شفاف من خلال المنظمات الخيرية والمساجد والاتحادات والمدارس والنوادى الرياضية. حاول الإسرائيليون بمساعدة من السلطة إغلاق مؤسسات حماس للعمل الاجتماعى وتجميد أرصدتها المصرفية. لكن تلك المحاولات وُوجهت بتظاهرات شارك فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين بمن فيهم أنصار فتح والمسيحيون، والمجموعات العلمانية وغيرهم من متلقّى الخدمات التى توفرها حماس.

وبدون توفير تلك الخدمات من جانب حماس، لما تمكن فلسطينيون كثيرون من البقاء أحياء. يدفع الفلسطينيون الضرائب للدولة الصهيونية التى ترفض توفير تلك الخدمات. وفقا للقانون الدولى فإن إسرائيل تتحمل مسئولية توفير تلك الخدمات والموارد بصفتها قوة احتلال لكنها ترفض ذلك وتلقى بالمسئولية على السلطة الفلسطينية. بيد أن غالبية عائدات السلطة وموازنتها تذهب إلى تقوية الأجهزة الأمنية الفلسطينية التى كثيرا ما تستخدم لإخماد حركات المقاومة. أما الخدمات التى توفرها الأمم المتحدة ومعها عدد كبير من التنظيمات غير الحكومة فلا تجدى نفعا إذ إن الولايات المتحدة والرباعية الأوروبية تسمح لإسرائيل بإملاء نوع المساعدات المسموح بها. وفى واقع الأمر، يشعر كثير من

الفلسطينيين بالعداء تجاه وكالات الغوث والمساعدات لأنهم يرونها تنفذ الأجندة الصهيونية وتعمل على استدامتها. مثلا، قالت لى هنا فى حوار معها فى إحدى البلدان:

«أقامت وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (يوسايد) هذه المدرسة طلبنا منهم ألا يبنوها فى مواجهة الجدار لأننا لا نريد لأطفالنا أن يبصروه على أساس يومى، لكنهم أصروا على بنائها فى هذا الموقع لكى يتقبله الأطفال كواقع ولا يقاوموه. يكره الناس فى القرية هذه الوكالة الأمريكية. ردّ الأطفال برسومات ضخمة على حائط المدرسة المواجه للجدار الصهيونى وكتبوا عليه «سنستمر فى المقاومة».

توضح تجارب الفلسطينيين بجلاء أن شعبية حماس مردّها الاحتلال الوحشى، وتهميش الغرب المنهجى لليسار العلمانى والقوميين.

وعلى غرار نموذج حزب الله اللبنانى، ظهرت حماس كحركة مقاومة مؤثرة، ووفرت الرعاية والخدمات الاجتماعية حيث فشلت الدولة فى الاضطلاع بهذا الدور المهم لصالح مواطنيها. بالطبع ثمة اختلاف بين حزب الله الشيعى وحماس السنية، واختلافات أخرى من حيث التشكيلة المختلفة للدولة والبنى الاجتماعية والسياسات التى يتبعها كل بلد منهما.

وكما فى حال حزب الله، يعتقد الغرب، مخطئا، أن تمويلات حماس تأتيها من إيران فقط. ظلت التمويلات، ولعدة عقود، تأتى حماس من بلدان فى المنطقة، بعضها موالٍ للولايات المتحدة وأخرى معادية لها (الكويت، إيران، السعودية، دول الخليج، السودان، والجزائر).

أثناء اجتياح العراق للكويت، دعمت منظمة التحرير العراق لكن حماس نقدته ووجهت اللوم أيضا إلى سياسة الولايات المتحدة بالمنطقة، وفى ضوء هذا، استمرت حماس تتلقى الأموال من إيران والكويت.

أيضا، شهدت تلك الفترة صعود الحركات الإسلامية. كما أن كثيراً من بلدان الخليج والمجتمعات ذات الغالبية المسلمة التى كانت تمول منظمة التحرير رأت فى حماس بديلا وحولت إليها دعمها المالى من أجل إضعاف المجموعة العلمانية وتقوية حماس. ويعتبر أثرياء رجال الأعمال المسلمين المصدر الرئيسى لتمويل حماس، كما تتلقى حماس أيضا أموالا من التنظيمات الإسلامية والأفراد فى الولايات المتحدة وأوربا. تُنقل جميع التحويلات المالية إلى حماس من خلال المصارف الغربية والإسرائيلية وتخضع لرقابة مشددة.

فى أغسطس ٢٠٠٩، سمحت إسرائيل بعدد محدود من الشاحنات التى تحمل الأطعمة بالدخول إلى غزة، كما استعاد «اقتصاد الأنفاق» بين مصر وغزة نشاطه. تشرف حماس على أنشطة تجارية واستثمارات مربحة وتمكنت من إنشاء شركة للتأمين وبنك، كما تقوم بشراء كثير من عقارات غزة. بيد أن «اقتصاد الأنفاق» يظل معرضا بدرجة كبيرة للضغوط المصرية والإسرائيلية المستدامة، كما ظلت حماس تواجه حصارا منهجيا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والسلطة الفلسطينية. علاوة على ذلك، تواجه الحركة الآن شُحًا ماليا حادا إذ إنها ورثت من فتح ديونا مصرفية هائلة وهيئات بيروقراطية ضخمة تضم أكثر من ١٦٠٠٠٠ موظف، بما فى هذا القوات الأمنية الملتزمة بقمع أية حركة مقاومة.

كما تخضع حماس لعقوبات من جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وإسرائيل فيما تمنع عنها إسرائيل ملايين الدولارات شهريا التى تجمعها من جباية الضرائب من السلطة الفلسطينية.

أثَّر النقص الحاد الحالى فى الأموال إلى جانب الانقسامات بين

قيادات حركة المقاومة الفلسطينية على قدرة حماس على توفير الخدمات الاجتماعية. ونتيجة لذلك، أخذت نساء عديدات بزمام المبادرة وعملن مع جماعات قاعدية لتقديم الرعاية الصحية والتعليم وتوفير الفرص لممارسة الرياضة، وإقامة مشروعات للتمكين من خلال بناء الثقة وخلق التكافل والتلاحم. قالت لى أيلين قطب الأكاديمية والناشطة وعضو مركز بيسان للأبحاث والتنمية، قالت لى فى بيرزيت:

«إن بلدة بيسان جزء من فلسطين التاريخية. نعمل فى جنين والخليل ومختلف القرى ونربطها ببيسان. نحاول إيقاظ الوعى بالتحدث إليهن/ إليهم عن حركة المقاومة وعن مقاطعة السلع الإسرائيلية. نتبع نهج باولو فريرى لتعليمهم أن يقاوموا. نحاول تعزيز مفاهيم الاعتماد على الذات و التنظيمات ذات الأسس المجتمعية ومن خلال العمل التشاركى نساعد الناس على البقاء، وفى هذا السياق تبرز أهمية حزب الله لنا لأنهم تمكنوا من توحيد مختلف المجتمعات والطوائف».

هدى، أكاديمية وناشطة بجامعة القدس، وهى عضو منتخب فى الرابطة النسائية بالقدس الشرقية. تحاول تلك الرابطة توفير التعليم والرعاية الصحية ومساعدة الأسر على حل مشاكلها اليومية. علّقت بالقول:

«ثمة جمعيات نسائية كثيرة فى فلسطين تديرها فتح وحماس والتنظيمات السياسية الأخرى. بيد أن الإسرائيليين يضعون عقبات هائلة فى طريقنا. ولهذا السبب، تعمل بعض هذه الجمعيات مع النساء فى القدس الشرقية من أبوديس. نستطيع العمل بمزيد من الفاعلية ونحن خارج نطاق التحكم الإسرائيلى نقوم بإقامة الشبكات مع الجمعيات النسائية الأخرى أيا كانت توجهاتها وارتباطاتها السياسية (فتح، حماس، الجهاد، الجبهة الشعبية..) نعمل معاً لسد احتياجات النساء».

الحروب الإسرائيلية توحد الفلسطينيين ضدها:

كما أسلفنا فى الفصل الرابع، كان هدف إسرائيل من الهجوم على حماس وحزب الله عام ٢٠٠٦ هو إثبات أنها على استعداد لتدمير أية منظمات تتحدى قوتها العسكرية وسيطرتها على المنطقة. كانت أيضا رسالة غير مباشرة إلى إيران وسوريا عما ينتظرهما إذا لم تسيرا فى ركاب سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة. صرح إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ، أن الهجوم العسكرى الشامل على غزة كان يهدف إلى تحرير جلعاد شاليط. وعلى هذا الأساس هاجموا محطات توليد الكهرباء وتركوا غزة فى ظلال شامل، أطلقوا الصواريخ على الجبهات المدنية بما فى هذا أحد الملاعب، وموكب جنائزى، وعلى أطفال كانوا يلعبون على الشاطئ.

عُرِفت حرب عام ٢٠٠٩ على غزة بمذبحة غزة. شنت إسرائيل هجوما عسكريا استخدمت فيه القنابل العنقودية على المناطق السكنية المدنية بذريعة ردها على إطلاق الصواريخ على جنوب إسرائيل [لم تحدث سوى أوهى الإصابات] وبزعم تهريب السلاح إلى غزة قتلوا ١٤٠٠ فلسطينى [بخلاف عديد المصابين والمشوهين] وأصبح ٤٠٠٠٠٠ من سكان غزة بدون مياه جارية، وهدِم ٤٠٠٠ منزل أو دمرت تدميرا شديدا مما ترك عشرات الآلاف بدون مأوى. قصفت ٨٠ مبنى حكوميا، وقُتِل مدنيون عزّل كانوا يرفعون الرايات البيضاء. استخدموا الفلسطينيين دروعا بشرية فى خرق فاضح للمواثيق الدولية. استهدفت القوات الإسرائيلية قواعد حماس، ومعسكرات تدريب الشرطة، ومقار الشرطة، والمكاتب، والبنية الأساسية المدنية بما فى هذا المساجد والمنازل والمرافق الصحية والمدارس بزعم أن تلك المبانى يستخدمها مقاتلو حماس مخازن للأسلحة

والصواريخ. وفقا للصليب الأحمر فإن الآلاف الذين دمرت منازلهم فى هذه المذبحة مازالوا بدون مأوى فى عام ٢٠١٠ على الرغم من التعهدات بتقديم مساعدات تبلغ ٤,٥ مليار دولار، وذلك لأن إسرائيل ترفض السماح بدخول الإسمنت ومواد البناء الأخرى إلى قطاع غزة. مازالت المستشفيات تواصل النضال من أجل توفير احتياجات الحد الأدنى لمرضاها بسبب منع إسرائيل وصول الإمدادات الطبية، كما أن ٩٥٪ من مياه غزة لا توفى بمعايير منظمة الصحة العالمية علاوة على ذلك، فإن وجود نسبة عالية جدا من النيترات فى إمدادات المياه تعرض آلاف المواليد لخطر التسمم. تحظر إسرائيل على وكالات العون والإغاثة الاتصال بحماس بتاتا ويعنى هذا عجز هذه الوكالات عن إصلاح مرافق المياه والمرافق الصحية.

أثناء الحرب على غزة حدثت ثلاث هجمات على إسرائيل من جنوب لبنان من مؤيدى حزب الله[1]. وحدت الحرب على غزة الفلسطينيين ضد إسرائيل. صرح لى يوسف، المدرس بالقدس الشرقية وأحد نشطاء فتح، قائلاً:

«إن ما يحدث من شقاق داخلى بين الفلسطينيين هو شأن النخب السياسية ولا علاقة له بعامة الناس الذين يشعرون أن قيادات الفريقين يغشونهم. عدونا الوحيد هو إسرائيل سواء كنا من مناصرى فتح أو حماس أو الجهاد أو الجبهة الشعبية أو الشيوعيين. قاتلنا فى غزة موحدين ضد إسرائيل عملا بالمثل القائل «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب».

السياسات الإسرائيلية تعمل على تقوية حماس وإيران:

الفلسطينيون هم أكثر شعب علمانى فى المنطقة ومازالت توجهاتهم

(١) نفى حزب الله أن تكون له أية علاقة بهذه الهجمات. (الترجمة)

القومية العلمانية إحدى سماتهم الغالبة وليس ثمة سياسات طائفية أو مذهبية في فلسطين. من ثم، فإن تأييدهم لحزب الله، وإيران، وحماس، يمكن تفسيره فقط على أساس ما حققه حزب الله من نجاح في لبنان حيث استطاعت مقاومته الباسلة دحر القوات الإسرائيلية من لبنان عام ٢٠٠٠، منذ غزو العراق عام ٢٠٠٣، عمد الإعلام الموالي للغرب والإسرائيلي على التركيز على الانقسام الشيعي/ السني بهدف إضعاف النسيج المجتمعي في المنطقة وضمان أن تصبح إسرائيل القوة الوحيدة هناك. وعلى الرغم من هذه الدعاية، فحينما انتصر حزب الله في الحرب ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦، ترك هذا الانتصار أثرا عميقا على الفلسطينيين مرة أخرى وظهر التأييد الحماسي لحزب الله وإيران وكأن ليس ثمة وجود للانقسام المذهبي حيث إن كرامتهم وهويتهم الوطنية أهم كثيرا من الفروق الشيعية/ السنية. في هذا الصدد، تقول إصلاح جاد من جامعة بيرزيت:

«أثناء الحرب رأى الناس الحريري السني الذي يدعمه الغرب غير آبه بهجمات إسرائيل على لبنان. وفي المقابل، وحّد حزب الله المسيحيين والفلسطينيين السنة ضد إسرائيل. وفي هذا السياق، غدا حزب الله ونصر الله بالنسبة لغالبية شعوب المنطقة هم قادة الأمة العربية منذ ٢٠٠٦. علّق الناس صور نصر الله في بيوتهم ومحالهم التجارية ويحملون علم حزب الله وصور نصر الله أثناء تظاهراتهم ويهتفون به قائداً لهم. وذلك لأن حزب الله ونصر الله يتحدون إسرائيل عدو الفلسطينيين واللبنانيين وينتصرون عليها ويؤكدون على عزة العرب وكرامتهم. بعد الحرب، بدأت السلطة الفلسطينية تتحدث لغة مذهبية مرة أخرى وتؤكد على الانقسام الشيعي/ السني وتروّج أن الحرب كانت

بسبب سيطرة المذهب الشيعى على المذهب السنى وثقافته فى المنطقة. بدأ الناس يتساطون عن سبب عدم مناصرة أى قائد سنى عربى للفلسطينيين ضد الإسرائيليين. نتيجة لذلك، أدركوا أن الصراع لا علاقة له بالدين أو المذهب بالرغم من دعاية الإعلام الغربى والصهيونى والعربى، بل إنه يتعلق بمن يريدون الخضوع لإسرائيل وحلفائهم الغربيين ومن يرفضون مثل هذا الخنوع، وبمن يناصر الفلسطينيين فى مواجهة الجرائم الإسرائيلية ومن لا يناصرهم».

يُعجَب كثير من الفلسطينيين بتعددية حزب الله ويرون هذا توجها إسلاميا حداثيا ونموذجا جديرا بأن يحتذى. يعنى هذا أيضاً أن غالبية الفلسطينيين لا يؤيدون تنظيم القاعدة أو بن لادن أو غيرهم من المسلمين المتعصبين. يمثل تعاون حماس وحزب الله الوجه الجديد للإسلام السياسى غير المتعصب أو المحافظ، بل التعددى الذى يركز على النضال ضد الصهيونية والإمبريالية، والذى اكتسب شعبية كبيرة فى المنطقة. مى، هى عضو فى تنظيم «ابن البلد» العلمانى الديموقراطى الذى يدعو إلى حل الدولة الواحدة، أى الحل الذى كانت منظمة التحرير قد تبنته لدى إنشائها. عندما التقينا قالت إن:

«حزب الله اكتسب شعبية فى فلسطين منذ عام ١٩٨٣ لأنهم تحالفوا مع المسيحيين والدروز والفلسطينيين السنة فى لبنان؛ ظلوا يدعمون كل حركات المقاومة، وليس حماس فقط، ودعوا إلى الوحدة بين جميع الفصائل والحركات فى فلسطين. نرى فى لبنان تعاونا بين حزب الله والقوى الأخرى بما فى هذا اليساريون والمجموعات العلمانية. ونرى فى غزة أيضا تعاونا بين حماس والمجموعات الأخرى بما فى هذا مجموعات مناصرى فتح القاعدية. وفقا لمناصرى فتح والجبهة الشعبية فى غزة، فإن

حماس تتعلم من غالبية مناصريها أنه ليس بإمكانهم فرض أساليبهم المتشددة على مناصريهم وأن عليهم أن يكونوا متسامحين فى البداية، فرضوا على النساء، ارتداء الحجاب، لكنهم عدلوا عن فرضه فيما بعد. والآن، تؤيد الكثيرات من غير المحجبات حماس فى غزة وأنحاء فلسطين الأخرى».

وكما أسلفنا فى الفصل الرابع، فإن التناقضات المتأصلة فى موقف حزب الله الدينى/ السياسى ومعها الضغوط من جماهير القاعدة أدت إلى تغيير طبيعة التنظيم. مازال من غير الواضح ما إن كانت حماس ستتغير بنفس الدرجة. إن الدافع الدينى لدى حماس جلىّ وقوى، من ثم، يعترى القلق كثيرا من الفلسطينيين حول نوايا حماس لأسلمة المؤسسات الفلسطينية العلمانية سياسياً والليبرالية اجتماعياً وإحلال أجندتها المحافظة اجتماعياً محلها. أوضح لى عمر البرغوثى أحد الأعضاء المؤسسين للجنة «الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً وثقافياً». أوضح لى فى رام الله:

«يمكن أن يكون للنسخة الوهابية من الشريعة أثر ساحق وبخاصة أن من يدعمها هى الأسرة المالكة السعودية الأتوقراطية، والقامعة ثقافيا، والتى تملك موارد مالية هائلة تمكنها من تمويل نشر آرائهم الإسلامية عصر الأوسطية. فى اعتقادى أن مفهوم الاجتهاد الشيعى كان له أكبر الأثر فى انفتاح حزب الله على التحالفات مع المسيحيين فى لبنان، والفلسطينيين السنة، والقوميين العرب والعلمانيين، بل والماركسيين أيضا. لكن قيادات حماس من جهتها لم تظهر مثل هذا التوجه ناهيك عن خلق شراكة حقيقية مع القوى السياسية أو النشطاء السياسيين من ذوى الأيديولوجيات التى لا تتناغم مع أيديولوجيا حماس. يُوظّف حزب الله

مهنيين بعضهم شيوعيون ومسيحيون ونساء غير محجبات فى شبكات مدارسهم ومراكز الرعاية الصحية الواسعة التابعة للحزب، لكن حماس لا تفعل ذلك. لقد أثبت حزب الله وفقا لمعظم المعايير، وعلى الرغم من أى نقد قد يوجه إلى آرائه الإسلامية على المستويات الاجتماعية/الثقافية والفكرية، أثبت أنه أكثر حركات المقاومة تقدما وتطورا ورقيًا فى التاريخ الحديث العربى والعالمى. منذ عام ٢٠٠٦، عوّقت حركة حماس واقعيا تطور المراكز الفنية والثقافية فى غزة. مثلا، كانت موسيقى ورقصات وأغانى الـ Hip- hop مزدهرة كشكل من أشكال التعبير الثقافى فى مخيمات اللاجئين المكتظة، والآن تخضع تلك الأغانى لرقابة صارمة وتفرض القيود على عروضها من قبل حماس. كما تخضع المسرحيات للرقابة المشددة والحظر. انقرض الرقص تماماً من غزة باستثناء بعض العروض الفولكلورية الباهتة لفرق ذكورية بالكامل. وفى هذا، فإن حماس تُظهر توجها وهابياً ظن الكثيرون أنها قد نبذته – أو أصلحته بشكل شامل حينما تحولت الحركة عن أصولها المرتبطة بالإخوان المسلمين إلى حركة مقاومة قومية فلسطينية رئيسية لها توجه إسلامى معتدل».

وفى رد على هذه الاتهامات، أعلنت حماس مراراً أنها لن تفرض أية ممارسات دينية على الفلسطينيين. وفى واقع الأمر، فإن المجتمع الفلسطينى يتميز بالتنوع ويضم العلمانيين والمتدينين والمسيحيين والمسلمين الذين تعايشوا معا لقرون طويلة. يناصر غالبية هؤلاء السكان حماس بصفتها حركة مقاومة ضد إسرائيل، ولأنها توفر الخدمات والرعاية الاجتماعية، لكنهم لا يؤيدون أجندتها الدينية.

علاقة إيران بحماس:

علاقة إيران بحماس متعددة الأبعاد: سياسياً وأيديولوجيا وثقافياً.

تتعلق على المستوى السياسى بعزلة الفلسطينيين فى العالم العربى. وقد نشأت تلك العلاقة فى سياق فشل الأنظمة العربية فى نصرة الفلسطينيين من ثم، يرى كثير من الفلسطينيين أن إيران هى البلد الوحيد الذى يدعمهم. ومثل حزب الله، تقيم حماس علاقات ديبلوماسية مع إيران، ولها مكاتب ومتحدثون باسمها هناك، وتعمل على كافة المستويات السياسية والإعلامية. لكن تختلف علاقة إيران بحماس على نظيرتها مع حزب الله التى نشأت على أسس دينية/ تاريخية ولها أصول فى الأيديولوجيا الشيعية، أما علاقتها بحماس فهى نوع من الاتحاد السياسى. تقيم حماس روابط مماثلة مع سوريا والسودان وليبيا ولبنان، وتتمتع أيضا بدعم دول مثل مصر والسعودية وقطر والكويت لكنه من نوع مختلف. تدعم الدول الموالية للغرب والولايات المتحدة حماس لتجابه النفوذ السورى/ الإيرانى. استقبلت دول أخرى مثل باكستان وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وفودا من حماس دعما للفلسطينيين.

وعلى النقيض مما يزعم السياسيون والإعلام الغربى الذين يربطون بين المنظمة وإيران، فإن حماس، وتحت تأثير الإخوان المسلمين، تبدى إعجابا خاصا بالأحزاب الإسلامية المعتدلة الحاكمة فى تركيا وماليزيا أكثر من تأثرها بإيران وإعجابها بها. وقد قام كبار المسئولين فى حماس بزيارة تلك البلاد التى أرسلت ديبلوماسييها للتواصل مع حماس. ولهذه الروابط الرسمية أهمية خاصة لدى حماس التى تحاول تغيير صورتها التى روجها الغرب كـ«منظمة إرهابية»، وأن تحل محل منظمة التحرير كممثل للفلسطينيين. وفى نفس الوقت، فإن علاقتها بالمعسكرات المناهضة لإسرائيل والولايات المتحدة مثل إيران تساعدها إلى درجة كبيرة على جمع الأموال. وتعبئة الرأى العام فى صفها بالمنطقة وخارجها.

ينقسم الفلسطينيون حول دعم إيران لحماس. تذهب تانيا التى تعرِّف نفسها كعلمانية قومية يسارية وناشطة نسوية من خلفية مسيحية إلى أن:

«لإيران أجندتها الخاصة فى الشرق الأوسط، لكننى أفضل دورها على دور الولايات المتحدة. بالنسبة لى، فإن عدوى الحقيقى هو الصهيونية وليس إيران. ومن هذا المنطلق فإننى أدعم إيران وحماس. علينا التوحد ضد الاستعمار. بالطبع يساورنى القلق بشأن أحكام الشريعة التى تلتزم بها حماس وإيران. لكننا لكى ننتصر علينا البحث عن تحالفات. نعانى معاناة هائلة من الاحتلال، وقد استطاعت حماس وحزب الله وإيران التصدى للصهيونية».

لكن قيادات فتح تتهم حماس باتباع إيران الشيعية، وأجندتها. أوضح لى أحد عناصر فتح، واسمه عمار، من القدس الشرقية أن:

«إيران أصبحت مهمة بعد ثورة ١٩٧٩، وبخاصة بعد زيارة عرفات لطهران. لكننا نشعر الآن أن دعم إيران لحماس يساعد على تقسيم الصف الفلسطينى. إن الحركة فى فلسطين لا تقتصر على حماس فقط، فهناك فتح والشيوعيون والجهاد وحماس. تدعم إيران حماس لأن لها أجندتها للسيطرة على المنطقة من خلال أيديولوجيتها الشيعية. إن لدعم الولايات المتحدة لفتح وإيران لحماس آثارا سلبية على الحركة الفلسطينية. إن التقسيم السنى الشيعى فى المنطقة خطر، وتفاقم إيران هذا الوضع. ليست هذه التحالفات لصالح الشعب الفلسطينى لأن لكل طرف أجندته. إن وحدة صفوف فتح وحماس إيجابية فقط حينما تتخلص جميع الأطراف من أجندات سائر حكومات المنطقة. إن وحدة الشيعة والسنة والمسيحيين واليهود أمر إيجابى لكن الحكومات تستغل الدين لتقسيم الشعب. علينا تحرير أنفسنا بجهودنا الذاتية. نجحت الثورة

الإيرانية لأنهم قاموا بأنفسهم ونجحت الانتفاضة الأولى لأن الشعب الفلسطيني كان هو من قام بها، أما الانتفاضة الثانية فلم تنجح لأن القادة الفلسطينيين سيطروا عليها، كل لأجندته الخاصة».

لا توافق إصلاح جاد، الأكاديمية بجامعة بيرزيت على هذا الرأى:

«ترجع الانقسامات الداخلية داخل الصف الفلسطيني إلى أن الولايات المتحدة وإسرائيل تضغطان على السلطة الفلسطينية لتظل سلبية فى مواجهة الاحتلال الوحشى لأرضنا والإذلال اليومى لنا. ومن هذا المنطلق يرى الفلسطينيون إيران وحزب الله وسوريا إلى جانبهم بالرغم من الاختلاف المذهبى. قبل عام ١٩٧٩، كان الشاه يتحكم فى جانب من المنطقة وإسرائيل فى الجانب الآخر ومنذ سقوطه وإسرائيل تحاول أن تسيطر على المنطقة بأسرها. لا يمكن لشعوب المنطقة القبول بذلك، ليس بسبب الدين، بل بسبب مخططات الصهاينة وما يرتكبونه من جرائم، بدعم من الغرب، ضد الفلسطينيين. يسائل الناس أنفسهم: ما أجندة إيران؟ إذا كانت هى التصدى لإسرائيل، إذن فهم يرحبون بها ويتبعونها».

ليست إيران وحزب الله هم وحدهم من يتمتعون بتلك الشعبية. أثناء الحرب على غزة كان الناس يرفعون العلم الفنزويلى وذلك لدعم أوجو تشافس الفلسطينيين ضد إسرائيل. وفى يناير ٢٠٠٩، اندفع رجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء التركى وغادر القاعة أثناء مناقشة وضع غزة بالمنتدى الاقتصادى العالمى بدايڤوس (فى احتجاج منه على رئيس الكيان الصهيونى حيث رفض أردوغان الجلوس إلى جواره أو مصافحته). كان هذا احتجاجا شفاهيا سياسيا على الحرب على غزة. لدى عودته إلى إسطنبول، لقى أردوغان استقبال الأبطال، الأمر الذى

يعكس المعارضة المتنامية من جانب الشعب التركى لعلاقات البلد الطيبة مع إسرائيل. وفى اليوم التالى، اتخذ الفلسطينيون منه بطلا، وارتفعت صوره مع العلم التركى فى المحال التجارية والشوارع. أيضا أصدر حزب الله بيانا أشاد فيه بخطاب أردوغان أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٩، ووصف البيان خطاب أردوغان بأنه شجاع وملتزم بالقضايا الدولية وبخاصة القضية الفلسطينية. أثنى عمار الموسوى رئيس العلاقات الدولية بحزب الله أيضا على دعوة أردوغان للمجتمع الدولى بالتركيز على ترسانة إسرائيل النووية بدلا من برنامج إيران النووى، وأضاف الموسوى إنه يأمل أن تتبع البلاد العربية خطى أردوغان.

وكما يوضح كثير من الفلسطينيين، تتداخل السياسة والدين فى المنطقة. فللمرة الأولى. منذ جمال عبدالناصر، يسمع الشعب فى فلسطين وما حولها صوتا يتصدى للجرائم التى ترتكبها إسرائيل والولايات المتحدة فى فلسطين. ومن هذا المنطلق، غدت إيران قوة بديلة للولايات المتحدة بالمنطقة. يرحب الفلسطينيون بدعم إيران لهم فى قتالهم ضد الصهيونية والاحتلال، لكنهم لا يريدون لها الهيمنة على المنطقة بحيث تحل الأيديولوجيا الشيعية محل القومية العربية. يرون أن العراق بلد عربى دمره الأمريكيون وأن إيران متواطئة فى تدميره. لكنهم يرون دور إيران مسألة تقبل الجدل، فيما يرون موقف القادة العرب الذين يؤيدون الولايات المتحدة وإسرائيل علنا [والذين ساهموا فى غزو العراق واحتلاله] مشينا مُخزياً. تركزت جميع جهود الأنظمة العربية على تصوير إيران على أنها العدو، وليس إسرائيل. وقد بدأت بعض تلك الحكومات تدرك الآن أنه من المحتمل لغضب شعوبها التى تعانى من إخضاعها

لبشاعة الصهيونية والإمبريالية، الإطاحة بها. يناظر هذا وضع حماس: يدعم الناس حماس ليس لأنها متدينة أو متعصبة، بل لأنها حركة المقاومة الوحيدة الفاعلة:

يقول أسامة الناشط في مدينة حيفا:

«تمثل إيران نموذجا جديدا على الجماهير العربية التي اعتادت أن تربط الحضارة والتنمية بالغرب والغربنة. في السنوات الأخيرة، أمدتنا إيران بنموذج جديد للتنمية والحضارة. سئم الناس نفاق الغرب وهم يبحثون الآن عن حضارة إسلامية، أو شرقية أو شرق أوسطية».

وعلى الرغم من دعم إيران القوى في فلسطين، فقد أثارت احتجاجات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩ في إيران تساؤلات لدى كثير من الفلسطينيين. وعلى الرغم من تشكك الكثيرين نتيجة لدعم الإعلام الغربي والإسرائيلي والعربي الرسمي لحركة الديمقراطية في إيران وتساؤلاتهم عما إن كان هدفها هو زعزعة البلد، فإن الغالبية يتعاطفون معها. أخبرني رفعت، الناشط الفلسطيني الذي يعيش في لندن قائلاً:

«ظللنا دائما ننقد دور إيران في العراق. والآن، يثير اضطهاد، نشطاء الديموقراطية في إيران سؤالا لدينا: كيف لنا أن نثق في نظام لا يمكن لشعبه محاسبته؟ إذا لم يكن باستطاعته النزول على رغبة شعبه، فكيف له أن يؤازرنا. من المؤكد أن خطابهم بعد الثورة كان مهما، لكن خطابهم الحالي لا يفيد الفلسطينيين».

حماس في السلطة:

تختلف حماس في السلطة عن حماس في المعارضة، كما أنها ليست منظمة ذات بعد واحد: لها جناحها العسكري، وجناحها السياسي، وجناحها الديني. استخدمت حماس العنف ضد إسرائيل وضد فتح،

لكنها، وكما أسلفنا فى الفصل الرابع فقد خاضت الانتخابات وفقا لبرنامج مؤسس على القانون والنظام والرفاه الاجتماعى. قبل الانتخابات، ألغت حماس من برنامجها الدعوة إلى تدمير إسرائيل، مقتربة بذلك من برنامج فتح الذى كانت قد أدانته. ومنذ الانتخابات، عمدت إلى تخفيف لهجة موقفها القومى الداعى إلى تحرير فلسطين من النهر إلى البحر. كتب محمد الزهار، وزير خارجيتها، إلى كوفى أنان. أمين عام الأمم المتحدة وقتئذ، يعلن أن حكومته على استعداد للقبول بحل الدولتين على أساس حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، وبدولة ذات سيادة حقيقية وعاصمتها القدس. من ثم نجد أن المنظمة تتحرك باتجاه القومية البرجماتية. وبعيدا عن التوجه الإسلامى القتالى مما يمثل مصدراً للقلق لكثير من الفلسطينيين. أخبرتنى ليلى، الناشطة الفلسطينية بلندن:

«إن الأحاديث مؤخرا عن الاعتراف بدولة إسرائيل سقطت كالقنبلة على رءوس الفلسطينيين وغالبية شعوب المنطقة. إذا لم تكن الفكرة هى تمثيل طموحات الفلسطينيين بل الرقص على أنغام الولايات المتحدة، إذاً فإن فتح هى النموذج الأفضل للعب هذا الدور. كان من المفترض لحماس تبنى الرؤية السياسية للفلسطينيين وأجندتهم والعمل وفقها. لكنها الآن تبتعد عن هذا النموذج وتعتنق نموذج فتح. إذا لم تلتزم حماس بالتصرف وفقا لطموحات الشعب الفلسطينى وهى فى السلطة، فستفقد صورتها كحركة مقاومة».

أيضا، فقد حدث تعديل فى الموقف الإيرانى. صرح آية الله الخامئنى عام ٢٠٠٦، أن لإيران والبلاد العربية رؤية مشتركة حول القضية الفلسطينية، مضمرا بذلك أن إيران تقبل المبادرة العربية التى أُعلنت فى قمة بيروت عام ٢٠٠٢ والتى تدعو إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل

مقابل رجوعها لحدود عام ١٩٦٧. وعلى الرغم من أن السيد حسن نصر الله مازال يعلن أن حزب الله، كتنظيم لبنانى، لن يعترف أبدا بشرعية الكيان الإسرائيلى أو وجوده، فقد قال إنه لن يعارض أى قرار فلسطينى يؤيد حل الدولتين.

كان فوز حماس فى انتخابات ٢٠٠٦ مهما بالنسبة لإيران إذ إن علاقاتها مع الحكومة العراقية والسورية، ومع حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين تشكل لها كتلة قوية فى مواجهة السياسات الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة. يضع هذا الدعم، ومعه دعم القاعدة الجماهيرية بالمنطقة لإيران، يضعها فى وضع قوى للدفاع عن نفسها ضد أى هجوم محتمل من هذين البلدين. تفيد حماس أيضا من دعم إيران لها لأن ذلك يتيح لها أجندات دعم منافسى إيران، أى مصر والسعودية وتركيا، التى تخشى أن تسقط حماس فى مجال سلطة إيران ونفوذها.

تعتبر حماس علاقتها بتركيا أهم من علاقتها بإيران إذ إن تركيا عضو بالناتو وقد دعت وفدا رفيع المستوى من حماس لزيارة أنقرة. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة وإسرائيل تمارسان ضغوطا على تركيا، فقد عرضت أن تقوم بالوساطة بين حماس وإسرائيل. فى عام ٢٠٠٩، ذهب أردوغان إلى أن أى اتفاق إسرائيلى/ فلسطينى يجب أن تكون حماس طرفا فيه. برهنت حماس، المتجذرة فى جماعة الإخوان المسلمين، ومن خلال سياق القومية الفلسطينية، برهنت على استعدادها لتبنى برامج براجماتية توفيقية على غرار الحزب الحاكم فى تركيا.

حينما هاجمت إسرائيل أسطول الحرية فى المياه الدولية وهو فى طريقه لكسر الحصار عن غزة فى يونيو ٢٠١٠، وقتلت تسعة نشطاء

أتراك، تنامت شعبية تركيا فى فلسطين وأنحاء المنطقة. وبتحديها لإسرائيل وتصديها لها، أفادت الحكومة التركية على المستويين الداخلى والإقليمى.

يرى جيه. هلال فى كتابه «وفاة حل الدولتين» «أن الإسلام يوفر غطاء أيديولوجيا لمختلف أنواع التشكيلات السياسية والاجتماعية، ويتضح لنا صواب هذه المقولة من خلال سياسات إيران وحزب الله الخارجية. طالما أدت الأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية إلى تغيير الحدود بين الإسلام المحافظ والإسلام الليبرالى الديموقراطى فى الشرق الأوسط وزحزحتها، بحيث إننا نجد أن تلك التيارات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليبها المختلفة لعمل التنازلات لصالح الديموقراطية الليبرالية. لكن العامل المشترك بينها جميعا هو موقفها المعادى للإمبريالية والصهيونية.

obeikandl.com